الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأســـتاذ محمود الخفيف

— ٣٦ —

فى ميدانه السياسى :

وعاب خصوم ملتن عليه قبوله منصباً فى حكومة مغتصب جمع السلطة كلها فى يده ، وقالوا كيف يفعل هذا نصير للحرية ، واستخرجوا من ذلك أن دفاعه عن الحرية لم يكن إلا زعماً فحسب ؛ بل وذهبوا إلى أكثر من هذا فرموه بالتبجح أو بالغفلة إذ يحل لنفسه من التعصب ما يحرم مثله على غيره فهو فى منصبه يرد على مخالفى الحكومة ، ويمنقهم ويسخر من آرائهم ، وماذا يكون التعصب إن لم يكن فعله هذا تعصباً ؟ ويزيدون على هذا أنه إن جاز ذلك من ذى جهالة ضيق الأفق فهو لايليق من رجل يزعم أنه يتحلى بالأدب وينتسب إلى الفن ...

وهذا كلام يشبه بادى الرأى أن يكون حقاً ، ولكنه لا يلبث عند رده إلى الواقع والاعتبار فى أحكامه أن تتزايل عنه شبهة الحق ؛ فأما عن التعصب فى ذاته عيباً ، بل إن التعصب للرأى محمدة ما دام يؤمن المرء بما يقول ، ويشعر أنه يدافع عن حق ، والمعول هنا على نيته لا على خطئه أو صوابه ، فان لم يتبين حقيقة ماينتوى فمدار الحكم على القضية المتنازع فيها ، ويستحيل أن يخفى وجه الحق فى قضية يتناولها متخاصمان يبذل كلاهما أقصى جهده فى إثبات ما يحاول الآخر نفيه ، أو نفى ما يعمل خصمه على إثباته . طالما أن الوقائع غير خافية ، وكان الأمر أمر اعتبار وتدبر ورد إلى قواعد مقررة ؛ فان جهل الخصمان بعض الوقائع أو جهلاها كلها انتفى التدليس عنهما جميعاً ، وإن غابت عن أحدهما كان الثانى هو المدلس ، وإن لم يمكن اتهامه بالتعصب حتى يتبين تدليسه ؛ وإنما يكون التعصب مذمة إذا أصر المرء على رأيه وهو يعلم كما يعلم خصمه أنه باطل . أو إذا تبين له وجه الحق فكبر عليه أن يرجع إليه وتمادى فيما انساق فيه أول الأمر بجهالة .

وكان ملتن يؤمن أن حكومة كرمول تنصر الحق والحرية فالدفاع عنها دفاع عنهما ، ولا عبرة عنده بشكل الحكومة الاستبدادى ، وقد تحقق له ما كان يتمناه من نتيجة ، وطالما كان يؤمن ملتن دون أن يعميه غرض خاص بعدالة كرمول ، وبعده عن المطامع الذاتية ، وإباحته الحرية للناس فليس يعيبه أن يتعصب له ، وإنما يلحقه العيب إذا تبين له تحرف كرمول عن الصواب فى أمر وتحيزه لرأيه وظل على ولائه له ؛ وما فعل ملتن شيئاً من ذلك . بل لقد عارض كرمول ، وأنكر من تصرفاته ما سيأتى بيانه فى موضعه ...

واتخذ ملتن أهبته للدفاع عن الحكومة فى كل موقف تحتاج فيه إلى الدفاع ، وكانت أول خطوة له فى هذا المضمار الطويل ذى المسالك الوعرة ما كتبه بعنوان « ملاحظات » فى صدد صلح كلسكين الذى عقده كرمول مع الأرلنديين ، فأخذ يمن عليهم ملتن بما يلقون من عدالة وتسامح ما كانوا ليظفروا بمثلها على يد شارل ، وقد حسن وقع هذه الملاحظات فى نفس كرمول ، ونفوس أعضاء حكومته وأنصاره .

وكانت حكومة كرمول فى أشد الحاجة إلى مثل هذا الثناء فهى فى الواقع تستند إلى أقلية الشعب ، وتعتمد فى بقائها على الجيش المنتصر ، وعلى شخصية كرمول الذى لقب حامى الجمهورية وإن كان ملكا فى حقيقة الأمر ينقصه التاج ؛ وكانت أغلبية الشعب قد أسخطها القضاء على الملكية ، وبات الناس يتوجسون خيفة من انفراد كرمول بالسلطة على هذا النحو دون البرلمان ، وأخذ البرسبتيريز فى داخل البلاد يكرهون هذه الحكومة إلى الناس خفية ، بينما كان الرأى العام فى أوربا يعلن استنكاره وسخطه عليها ...

وفى شهر أغسطس سنة ١٦٤٩ نشر فى الناس كتاب غفل من اسم مؤلفه عنوانه « إيكون باسيليك » — صورة جلالته المقدسة فى عزلته وآلامه » ؛ وتلقفت الأيدى هذا الكتاب ، وكان الناس قد أحزنهم وآلمهم إعدام الملك على الرغم مما كان

من طغيانه وعقد ألسنتهم الرعب والدهشة ؛ وسرعان ما نفدت طبعته فأعيد طبعه وأعيد حتى لقد بلغ خمسين مرة فى تلك السنة ، وذهبت الظنون بالناس كل مذهب من يكون مؤلف هـذا الكتاب ، وشاع فيهم أنه من وضع الملك نفسه كتبه قبيل إعدامه ؛ وقد ادعى تأليفه فيما بعد أحد رجال الدين واسمه دكتور جودن وتقرب به إلى الملكية العائدة ، وزعم أنه اعتمد فى تأليفه على مذكرات كتبها شارل بخطه فى أخريات أيامه ؛ وخلاصة الكتاب أن الملك ذهب ضحية العدوان والبطش وقد ظل مؤمناً بربه صابراً حتى قتل مظلوماً .

ومهما يكن من أمر تأليفه فقد ذاع الكتاب فى الأمة على نحو لم يعرف الناس له شبيهاً من قبل ، وهال الحكومة الأمر فتلفتت تبحث عمن يرد عنها هذه الموجة العاتية ، وفكرت فى أول الأمر فى سلدين وكان من أشهر رجال عصره مهارة وعلماً ، ولكنها اتجهت أخيراً إلى ملتن .

وما أهل أكتوبر حتى كان ملتن على الرغم مما كان يعانى من ضعف بصره قد ردّ بكتاب بلغ نيفاً ومائتين وأربعين صفحة ، سماه « إيكون أوكلاستيس » أى محطم الأيقون ؛ وفيه استعرض ما جاء فى ذلك الكتاب فصلا فصلا وأخذ ينقد كل رأى فيه ويسفه كل حجة فى بلاغة وتحمس وتدفق على نحو ما فعل فى خصوماته ورددوده السالفة ...

وقد افتتح ملتن كتابه بقوله إنه مما يجمل بالمرء أن يتعقب مساوىء رجل هوى من مثل تلك المنزلة العليا التى تبوأها شارل وبخاصة بعد أن دفع ثمن ما اقترف ، ولكن كتابه على الرغم من هذه الفاتحة لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما فعل شارل إلا أحصاها ، ثم راح يعيب على هؤلاء الذين يمجدون ذكرى هذا الملك الذى صنع بحرية بلاده ما لم يصنعه فى انجلترة ملك قبله ، ورأى أن الذين يفعلون ذلك إنما يبرهنون به على أنهم غير جديرين بالحرية التى حاربوا من أجلها وأخلق بهم أن يعودوا إلى الأغلال فمثلهم كمثل عدد من الوحوش الثائرة المقتتلة لا تسكن حتى تكبل أرجلها وتغل أعناقها ، وتم هذه اللهجة القاسية عن مقدار حنقه على من أحزنهم إعدام شارل ، والكتاب فى جملته وفى روحه العامة لا يعدو كونه مجادلة حزبية وخصومة جامحة لا كما تكون الخصومات فى الرأى بين العلماء ولذلك فهو لا يشرف رجلا مثل ملتن إن لم يك كفيلا بأن ينتقص من قدره ...

من أجل هذا لايسع المرء إلا أن يحس أسفاً عميقاً لانصرافه عن الشعر والفن فذلك ماخلق له ، أما هذه الخصومات السياسية وما ينفق فيها من جهد ويحتمل من عناء فما أقلها عوداً إلا على الذين طلبوها ليحتموا بها ، وما أثقلها وأرذلها وقعاً فى نفوس الذين يقدرون ملتن حق قدره كشاعر ، والذين تهفو قلوبهم إلى أمثال ما غنى من قبل من ألحان بلغ بها ذروة الإجادة ، وتجاوز بها أقصى ما بلغه شاعر من سحر الفن .

ويحلو الخصوم ملتن أن يأخذوا عليه مأخذين يتصلان بالأدب والفن فى كتاب إيكون أوكلاستيس، فأما أولها فقد نسبوا إليه أنه تهكم على شارل أن جعل وليم شكسبير قرينه المقرب فى عزلته آخر حياته ، وأما ثانى المأخذين فقريب من الأول وخلاصته أن ملتن ترمت ترمت البيوريتانز خصوم الفن إذ يعيب على الملك أخذ فقرة من قصيدة أركاديا لسير فيليب سدنى فجعل هذه الفقرة صلاته ، ويرى أنه مما يشين الملك أن يتخذ صلاته من قصيدة كهذه وإن كانت لها فى ذاتها قيمتها وبراعتها فى ساعة عصيبة كالتى كان فيها ، ويصف ملتن تلك القصيدة كأثر فنى بأنها من قصائد الحب العابثة .

ويرى مارك باتيسون أن المأخذ الأول لا أساس له وإنما جرده إلى سوء الفهم، فما سخر ملتن من شارل وإنما كان يقتبس ملتن فقرة من مسرحية ريتشارد الثالث لشكسبير يوضح بها معنى يريده . فذكر فى صدد ذلك أنه لا يقتبس من كاتب ممن لا يحسن الملك مصاحبتهم ، وإنما يقتبس ممن يعرف الجميع أنه كان رفيقه المقرب فى عزلته ألا وهو وليم شكسبير .

ولكن باتيسون لا يعفى ملتن من المأخذ الثانى ، ويقول إن فيه شاهداً على أن مؤلف الأليجروا قد تأثرت الناحية الفنية فيه تأثراً غير قليل بما اندفع فيه من الخصومات الدينية والسياسية وإلا فكيف يحقر قصيدة كهذه فينسبها إلى العبث واللهو .

وما كاد يستريح ملتن من عناء رده حتى وجد نفسه كما وجدت الحكومة نفسها تلقاء هجوم آخر لا يقل عنفاً عن سالفه ويزيد عليه فى سمة انتشاره ، وما أحدث فى أوربا وفى انجلترة من قوة

الأثر وشدة الدوى ، وقد انبعثت هذه الصيحة من هولندا هذه المرة فى كتاب ألفه باللاتينية علم من أعلام الأدب الأفذاذ هو الأستاذ سلامَسْيِيسْ أحد رجال جامعة ليدن وجعل عنوانه : « دفاع عن الملك شارل الأول » .

وبيان ذلك أن شارل الثانى كان يعيش فى مدينة هيج ، وكان على مقربة منه سلامسيس فى جامعة ليدن، وكان هذا الأستاذ أقدر معاصريه على الكتابة باللاتينية لغة العالم يومئذ كما هو الحال فى الفرنسية اليوم ، فاستعانه شارل ليدافع عن أبيه ، وقبل سلامسيس ذلك عن طيب خاطر لأنه كره إعدام الملك فى انجلترة كرهاً شديداً .

وكان الأدباء القادرون على الكتابة ، وعلى الأخص كتابة اللاتينية عدة الملوك والأمراء وذوى المكانة فى ذلك القرن، وكان لبضاعتهم سوق يعظم فيه الربح ، وكان لهم قدرهم وعظيم خطرهم لا عند الجمهور ولكن عند الحكام . فهم يجتذب الرأى العام ولأقلامهم المشروعة مثل ما للسيوف من أثر أو كانت أبعد من ذلك شأنا ، وكان المتبع أن يستأجر الحكام هؤلاء الكتاب ليصنعوا ما تصنع الصحافة اليوم من دفاع وتهيئة للأذهان ، ونشر لما يراد نشره من الآراء .

وكان سلامسيس قمة من القمم الشوامخ تتنازعه الجامعات والعواصم ويحب البابا أن يستأثر به فيبقيه عنده فى روما ، بينما يعمل الملوك على إغرائه بزيارتهم والإقامة عندهم ، وكان هذا الرجل واسع الأفق ، قلما وجد نده فيما قرأ ودرس من الكتب ؛ لذلك كانت استجابته لشارل الثانى كسباً عظيما لهذا الذى يهمه الدفاع عن أبيه ، وقد كتب دفاعه ولم يأخذ عليه أجراً كما يرجح أكثر المؤرخين ، ونستطيع أن نتصور مبلغ ما أحدثه كتاب مثل كتابه من أثر فى انجلترة وفى أوربا ، كما نستطيع أن نتصور فداحة الخطب الذى ألقى على عاتق ملتن وإن المرض ليخترم جسمه يومئذ وإن العمى ليتهدد ناظريه .

وصل كتاب سلامسيس انجلترة فى أواخر سنة ١٦٤٩ ، وسرعان ما أصدر مجلس الدولة قراراً يحرم تداوله ، وفى يناير سنة ١٦٥٠ انتدب ملتن ليكتب رداً على هذا الكتاب فما أهل شهر مارس حتى نشر ملتن ، وهو لا يكاد يقوى على فتح عينيه كتاباً عنوانه « دفاع عن الشعب الانجليزى » ، وقد ازدادت بهذا الكتاب شهرة ملتن فى أوروبا جميعاً وعظم قدره فى الأوساط الأدبية كلها ، وكانت دهشة الناس من شجاعته أكثر من إعجابهم بوطنيته فانه لم يحجم عن منازلة ذلك المارد الأوروبى سلامسيس ، وأن يجعل عدته اللاتينية ، وقد حسب خصمه أن لن يقدر عليه أحد ، فإذا به حيال قوة لا ريب فيها ، وفصاحة لا يستطيع أن ينكرها إلا الجاحدون .

احتشد ملتن لكتابه وبذل قصارى جهده على الرغم من إلحاح العلة عليه وطغيان الغشاوة على ناظريه ، ليظهر لأوربا أنه أعلى من سلامسيس فى اللاتينية كعباً وأطول منه باعاً ؛ ولقد بلغ فى كثير من مواضع الكتاب غاية ما تمنى ، ولكنه كان فى مواضع أخرى كالمثنى الذى يكلف نفسه ما لا تطيق ليأتى بخير ما عنده ، فما يعود من ذلك الجهد إلا بانقطاع نفسه واحتباس صوته ؛ ولقد وجد ملتن فى الرد على سلامسيس العظيم فرصة يلفت فيها أوربا إلى مقدرته ويقنعها بضلاعته وتمكنه واتساع أفق ثقافته ، لذلك أسرف فى التحمس وبالغ فى سوق العبارات الضخمة وتأنق وتعمق وتعالى وحلق ، وكان فى بعض المواطن إلى الخطيب الذى نسى نفسه أقرب منه إلى الكاتب الذى حذق فنه .

على أن ما بذل من طاقة فى هذا السبيل قد سبب له كثيراً من الضعف فى نواحى القياس والبرهان والاستيعاب والشمول والإحاطة بموضوع الدفاع وحسن ترتيبه وتسلسل سياقه ؛ هذا إلى أن اهتمامه بإظهار عيوب سلامسيس وتصيد أخطائه وتعقب متناقضاته والسخرية منه قد صرفه كثيراً عن غايته ؛ ثم إن توجيه المطاعن الشخصية إلى خصمه وإسرافه فى ذلك إلى مدى من الفحش بعيد قد أليس كتابه كثيراً من السخف وألحق به غير قليل من الفسولة .

ولم يعف ملتن شارل الأول فى هذا الكتاب كذلك من التحقير والإهانة وهوى لحده ، فشبهه بنيرون طاغية روما، ونسب إليه كثيراً من الفجور والفسوق واتهمه بتهمة تكراه هى دسه السم لأبيه ، إلى غير ذلك مما يبعد كل البعد عن اللياقة ...

وأنكر ملتن ما ادعاه الملوك لأنفسهم من حق إلهى ، فليس يستند هذا الزعم إلى أساس معقول ، ولا هو مما يتفق مع ما يتصف

به الله من عدالة وحكمة ، فالله عدو الظلم ونصير الحرية ، وهو يحب الأحرار من عباده ويرفع منزلتهم ؛ وقد جاء المسيح لنصرة الحرية ، وإلا فهل يرضى الله أن تقوم الحكومات لتكون كل منها أداة للطغيان ، وكيف يقبل أن يفرض على الناس طاعة هذه الحكومات ويقر خضوعهم للظلم والبطش ؟ وما فعل الشعب الإنجليزي أكثر من ثورته على الطغيان وتقريره مبادئ الحرية ليعيش الناس في كنف هذه المبادئ آمنين مطمئنين لا يأتيهم الخوف من أي مكان ...

ويمجد ملتن حكومة كرمول وما فعلت في سبيل الحرية وما ظفرت به من نصر لن يظفر بمثله إلا الأنجاد الميامين أولو العزم والبطولة ، ولكنه يصارحها أنه لا يزال أمامها ما يقتضيها جهوداً وبطولة ليست أقل مما بذلت ، فعليها أن تقضي على ما يتهدد كيان البلاد من المساوئ الداخلية كالجشع والطمع وأنانية ذوي الثراء وبغيهم ، حتى يتمتع الناس بالسلام والأمن في كنف الحرية ؛ وتنطوي عباراته هذه على شيء من الوعيد يتهدد به خصوم الحكومة من طرف خفي ، فقد كان ملتن ضيق العطن بهؤلاء الخصوم شديداً عليهم يتمنى لو ابتلعتهم الأرض وسمهم وما يمكرون !

وسخر ملتن من شارل الثاني وسماه شارل الصغير وبالغ في تحقير دعوته سلامسيس للدفاع عن أبيه ونعت من التفوا حوله بأنهم حفنة من الصعاليك يتصايحون ولا هم لهم إلا التصايح والعواء

أما ما قذف به سلامسيس من مطاعن ، فقد تجاوز في ذلك كل حد ، فلم يتورع عن شيء مما يمس العرض والشرف ، ونال بسهامه زوجته وسخر منها كما سخر من زوجها ووصفه بأنه مطية لهذه الزوجة التي تملك زمامه فلا يملك لنفسه بين يديها ضراً ولا نفعاً ؛ هذا إلى ما رماه به من الجهل والغباء والغرور والادعاء والحمق والعبودية وما إليها من ألفاظ السباب ومرادفاتها مما نعجب كيف تسنى أن يصدر مثله من رجل كملتن فضلا عن أن يعد هذا دفاعاً عن قضيته ، ولكنها فيما يبدو طريقة ذلك العصر وأسلوبه في الجدل والخصام ...

وبلغ الغضب كل مبلغ بسلامسيس ، ونال من نفسه فرح حاسديه لما أصابه أكثر مما نالت مطاعن ملتن ، فقد أضحت ملتن به الأعداء وأضحكهم منه ، وكان يبالغ هؤلاء الحاسدون في إعنائه فيثنون على ملتن ويعجبون بعبقريته وضلاعته في اللاتينية وآدابها ، وانبرى فريق من محبيه يسفهون هؤلاء ويوجهون المطاعن إلى ملتن ؛ وبرز لهؤلاء أنصار ملتن فكالوهم صاعاً بصاع ، وهكذا تشعبت المعركة إلى معارك حتى كاد ينسى الدفاع عن شارل والدفاع عن الشعب الإنجليزي .

ونفس سلامسيس عن نفسه بكتاب ثان بلغ ثلثمائة صفحة ولكنه مات سنة ١٦٥٤ ، ولم ينشر كتابه إلا سنة ١٦٦٠ بعد عودة الملكية إلى انجلترة ، وقد نسي الناس هذا الموضوع ، ومن شاء أن يقف على مبلغ حنق سلامسيس على خصمه ، فليقرأ ما جاء في هذا الكتاب من مطاعن ، فقد كال لملتن بنفس كيله فهو عنده الأحمق المفتون الذي يظن في نفسه اللباقة ، وما هو إلا وحش قذر ، وإن خير ما يجب أن يصنع به هو أن يشنق على أعلى مشنقة ، ثم يوضع رأسه فوق برج لندن ، وأباح سلامسيس لنفسه أن يعير ملتن بما أصابه من عمى كأنما هو أمر يدخل في مسؤوليته ، ومما قاله في هذا الصدد نعته ملتن بأنه الرجل الذي لم تكن له بصيرة ، حتى فقد بصره كذلك ، وإن من أقبح الأمور وأرذلها أن يعيب المرء على خصمه عاهة لحقته ولا يد له فيها وليس وراء ذلك سخف فيما نعتقد ، وما نظن إلا أن سلامسيس قد مسه الخبل من فرط ما ملأه من غيظ فطوعت له نفسه أن يقول هذا الكلام ، وهكذا احتدمت الخصومة بين الرجلين حتى قال هوبز: إنه عاجز عن أن يقطع أيهما كان أحسن لثة وأيهما كان أسوأ جدلا ؛ ويرى دكتور جونسون على الرغم من شدة وطأته ، إذ ينقد ملتن أنه كان أبلغ من سلامسيس . ويرى مثل هذا الرأي مارك پاتيسون ، ويزيد عليه أن ملتن كان أقوى فهما وأرجح عقلا من خصمه ، وإن كان على سعة اطلاعه أقل منه قراءة ومعرفة بالكتب ...

وقد مات سلامسيس بعد رد ملتن عليه بنحو ثلاث سنوات ، ومع ذلك فقد أذاع أنصار ملتن ومنهم ابن أخته أنه مات كمداً ، ومن أعجب الأمور وأدعاها إلى الأسف أن يقر ملتن هذا الزعم ويجعله من دواعي فخره ، وإنها لسقطة تحسب على الشاعر العظيم ، وكم نود لو أن تاريخه قد خلا منها ، فهي لا تقل عن سقطة خصمه ، إذ عيره بفقد ناظريه ...

(يتبع)

الخفيف